الارض في الحكاية الشعبية الفلسطينية

خليل السواحري

مصطلح الارض في هذه الدراسة لا يعني مجرد « المكان » بمعناه الفني ، على غرار الزمان والحدث والبطل في الحكايات او القصص الصغيرة . ولكنه يعني هنا بالاضافة الى الدلالة الفنية لمصطلح المكان ، الارض بكل معانيها وظلالها انه يعني « الوطن » بكل ما يتفرع عن هذه الكلمة من دلالات متنوعة ، وعليه فان مصطلح الارض حيثما يرد في هذه الدراسة يعني « الوطن » وتلك هي الغاية الاساسية التي استهدفتها هذه الدراسة .

مرت الحكاية الشعبية الفلسطينية ، خلال الفترة منذ عام ١٩٤٨ وحتى الان ، بتغييرات شبه جذرية يمكن معها ان نقسم هذه الحكاية الى نمطين مختلفين وان لم يكونا متغايرين ، وهذان النمطان هما : أ ـ الحكايات التي رويت وما تزال تروى فوق الارض الفلسطينية المحتلة منذ عام ١٩٤٨ او الارض الفلسطينية المحتلة منذ عام ١٩٦٧ وبالامكان تسمية هذا النوع من الحكايات « بالحكايات المقيمة » . ب ـ الحكايات التي رويت وما تزال تروى خارج الارض الفلسطينية في المنافي والمهاجر ورواة هذه الحكايات هم ابناء فلسطين المتقدمون في السن ممن حفظوا هذه الحكايات اثناء وجودهم ، في فلسطين قبل النزوح الاول او النزوح الثاني ويمكن تسمية هذا النوع « بحكايات المنفى » .

وقد تعرض النوع الاخير من « الحكايات » الى تأثيرات متعددة سلبت بشكل او بآخر مصطلح الارض فيها من ايحاءاته الواقعية ، وقد وجدت نفسي مضطرا ورغم كل هذه التحفظات الى الاعتماد على « حكايات المنفى » في تقصي مفهوم الارض في الحكاية الشعبية الفلسطينية ، وذلك لصعوبة الحصول على الحكايات المقيمة من جهة ، وفي محاولة لمعرفة الاثار التي خلفتها تجربة الاغتراب والمنافي على الحكايات المهاجرة . وقد حاولت قبل أن اشرع في كتابة هذه الدراسة ان اقرأ كل ما امكنني الحصول عليه من حكايات شعبية فلسطينية(١)، وتبين لي ان عددا لا يستهان به من هذه الحكايات يصر على تحديد ماهية المكان الذي يتحرك فوقه ابطال هذه الحكايات ، وتلك ميزة لم اجدها في الحكايات الشعبية الفلسطينية كلها كما لم أجدها في معظم الحكايات الشعبية غير الفلسطينية ، وربما كان ذلك راجعا بشكل عام الى ان الحكايات الشعبية ، على اختلاف انواعها ، لا تصر على تحديد ماهية المكان بقدر ما تحصر اهتمامها في شخصية البطل والحدث والاسقاطات الطبقية التي يمثلها البطل(٢) .

واذا كان ثمة سمة اساسية تحدد ملامح الحكايات الشعبية في بلد ما فهي ، كما هو معروف علميا وبحكم هجرة الحكايات من بلد الى اخر ، ليست مسألة الاطر الجغرافية للمكان ولكنها مسألة الاطر الحضارية والثقافية والانتروبولوجية للشعب الذي يقطن هذا المكان ، ومن هنا جاء الاختلاف في الحكايات الشعبية بين شعب واخر